المبحث الثانى

أسس الأساليب الفكرية المؤثرة فى عقل الطفل

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ
عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ
ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ
مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ
فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ
أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ
ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ
مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ
ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان] .

أسس الأساليب الفكرية المؤثرة
فى عقل الطفل

الأساس الفكرى الأول : رواية القصص للطفل وقراءته لها :

تلعب القصة دورًا كبيرًا فى شد انتباه الطفل ، ويقظته **الفكرية** والعقلية ، وتحتل المركز الأول فى الأساليب الفكرية المؤثرة فى عقل الطفل ؛ لما لها من متعة ، ولذة . ونجد وفرة فى **القصص** النبوى تجاه الأطفال ، حكاها النبى ﷺ لأصحابه الحاضرين منهم الكبير والصغير، فكانوا يُصغون إليه بكل انتباه ؛ لما يقصه النبى ﷺ عن حوادث وقعت فى زمن مضى ؛ ليتعظ بها الحاضرون ، ومن بعدهم إلى يوم الدين .

وثمة ملاحظة هامة ، وهى أن **القصص** النبوى يعتمد على حقائق ثابتة ، وقعت فى غابر الزمن ، وهى بعيدةٌ عن الخرافة والأساطير ، وإنما هى قصص تبعث فى الطفل الثقة بهذا التاريخ ، كما تُضْفى على روحه الاندفاع والانطلاق ، وتبنى فيه الشعور الإسلامى المتدفق الذى لا يجفّ نبعه ، والإحساس العميق الذى لا يعرف البلادة .

وإن أخبار العلماء العاملين ، والنبهاء الصالحين من خير الوسائل التى تغرس الفضائل فى النفوس ، وتدفعها إلى تحمُّل الشدائد والمكاره فى سبيل الغايات النبيلة ، والمقاصد الجليلة ، وتبعثها إلى التأسى بذوى التضحيات والعزمات ؛ لتسمو إلى أعلى الدرجات ، وأشرف المقامات .

ومن هنا قال بعض العلماء من السلف : «الحكايات جند من جنود الله ـ تعالى ـ يثبت الله بها قلوب أوليائه» .وشاهده من كتاب الله تعالى قوله سبحانه : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ

وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ [هود] .

وقال الإمام أبو حنيفة - رحمه الله : «الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبّ إلىَّ من كثير من الفقه ؛ لأنها آداب القوم» وشاهده من كتاب الله تعالى قوله سبحانه : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف :١١١] (١) .

وسيأتى معنا عدد من القصص النبوى مثل قصة أصحاب الأخدود ، وقصة جريج العابد ، وقصة أصحاب الغار ، وقصة أويس القرنى ، ونزيد هنا بعض القصص النبوى لتكون زادًا للوالدين والمربين ... وهى :

١ - قصة سيدنا إبراهيم وإسماعيل وأمه عليهما السلام.

٢ - قصة الكفل .

٣ - قصة الأقرع والأبرص والأعمى .

٤ - قصة المقترض ألف دينار .

١ ـ قصة سيدنا إبراهيم وإسماعيل وأمه ـ عليهم السلام :

أخرج البخارى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال :«أول ما اتخذ النساء المِنْطَق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت مِنْطَقًا لِتُعَفّى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه ، حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعها هناك ، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم، أين تذهب ، وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء؟! فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم ، قالت : إذًا لا يُضيِّعنا ، ثم رجعت .

(١) مقدمة (صفحات من صبر العلماء) ، ومقدمة (رسالة المسترشدين) .

فانطلق إبراهيم عليه السلام حتى إذا كان عند الثنية - حيث لا يرونه - استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، فرفع يديه فقال :﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ ﴾ [إبراهيم].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت ، وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوّى ، أو قال : يتلبَّط ، فانطلق كراهية أن تنظر إليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدًا ؟ فلم تر أحدًا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها ، ثم سعتْ سعىَ الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها ، فنظرت هل ترى أحدًا؟! فلم تر أحدًا ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس: قال النبى ﷺ« فلذلك سعى الناس بينهما» .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت : صه .. - تريد : نفسها - ثم تسمعّت ، فسمعت أيضًا، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه - أو قال : بجناحه - حتى ظهر الماء تحوِّضه، وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرفُ من الماء فى سقائها ، وهو يفورُ بعدما تغرف ، وفى رواية : بقدر ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبى ﷺ :«يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف - لكانت زمزم عينًا معينًا» .

قال : فشربت ، وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن هاهنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام ، وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك ، حتى مرت بهم رُفقةٌ من جُرْهُم (أو : أهل بيت من جُرْهُم) مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائراً ، فقالوا : إن هذا الطائر

ليدور على الماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريًّا، أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعا ، فأخبراهم ، فأقبلوا ،وأم إسماعيل عند الماء ،فقالوا:أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قلت: نعم،ولكن لاحق لكم فى الماء، قالوا : نعم ، قال ابنُ عباس : قال النبى ﷺ :« فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحبُّ الأنس»، فنزلوا ، فأرسلوا إلى أهليهم ، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم .

وشبَّ الغلام ، وتعلم العربية منهم ، وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجدْ إسماعيل ، فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا - وفى رواية : ذهب يصيد - ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بشرّ ، نحن فى ضيق وشدة ، وشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، وقولى له : «يغيّر عتبة بابه» .

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، فسألنى : كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشىء ! قالت : نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك : غيِّر عتبة بابك ، قال : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، الحقى بأهلك، فطلقها .

وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله أن يلبث ، ثم أتاهم بعد ، فلم يجده ، فدخل على امرأته ، فسألها عنه ، قالت : خرج يبتغى لنا ، قال : كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله عز وجل ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء ، قال:اللهم بارك لهم فى اللحم والماء قال النبى ﷺ : «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ ، ولو كان لهم دعا لهم فيه» قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ، قال : فإذا جاء زوجك ، فاقرئى عليه السلام ، ومُريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل

قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة - وأثنت عليه - فسألنى عنك ، فأخبرته ، فسألنى : كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنَّا بخير ، قال : أوصاك بشيء؟ قالت : نعم يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى ، وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك .

ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك ، وإسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما الوالد بالولد ، والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل، إن الله أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك ، قال : إن الله أمرنى أن أبنى بيتًا ها هنا - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بحجارة ، وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء ، جاء إبراهيم بهذا الحجر ، فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾[1] [البقرة] قال:فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت ، وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة] .

٢ـ قصة الكفل [2] :

روى الترمذى، عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كان فيما كان قبلكم رجل اسمه الكِفْل ، وكان لا ينزعُ عن شيء ، فأتى امرأة علم بها حاجة ، فأعطاها عطاءً كثيرًا، وفى رواية : ستين ديناراً ، فلما أرادها على نفسها ارتعدتْ، وبكتْ ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : لأن هذا عمل ما عملتُه قط ، وما حملنى عليه إلا الحاجة ، فقال : تفعلين هذا أنتِ من مخافة الله ؟ ! فأنا أحرى ، اذهبى فَلَكِ ما أعطيتك ، والله ! لا أعصيه أبدًا، فمات من ليلته مكتوباً

(١)انظر : جامع الأصول (١٠/ ٢٩٥) تحقيق الأرناؤوط.
(٢) تروى هذه القصة عند قرب الطفل من سن الاحتلام .

على بابه إن الله تعالى قد غفر للكفل ، فعجب الناس من ذلك ، حتى أوحى الله تعالى إلى نبى زمانهم بشأنه» .

٣ـ قصة الأقرع والأبرص والأعمى :

أخرج الشيخان عن أبى هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إن ثلاثة فى بنى إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى ، فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكاً ، فأتى الأبرص ، فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجِلْد حسن ، ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس ، فمسحه، فذهب عنه قذره، وأعطى لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا، قال: فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ، أو قال : البقر - شك إسحاق - إلا أن الأبرص والأقرع قال أحدهما : الإبل ، وقال الآخر : البقر ، قال: فأعطى ناقة عُشَراء ، فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرع ، فقال : أى شىء أحبُّ إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهبُ عنى هذا الذى قد قذرنى الناسُ ، قال : فمسحه، فذهب عنه ، قال : وأعطى شعرًا حسنًا، قال : فأى المال أحب إليك؟ قال : البقر ، فأعطى بقرة حاملاً ، قال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأعمى ، فقال : أى شىء أحبُّ إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى فأبصر به الناس، قال:فمسحه فرد الله إليه بصره.

قال : فأى المال أحبُّ إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطى شاةً والداً . فأُنتِجَ هذان ، وَوَلّد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا وادٍ من الغنم .

قال : ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين ، قد انقطعتْ بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ، ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن ، والمال : بعيرًا ، أتبلَّغ به فى سفرى ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال له : كأنى أعرفك ! ألم تكن أبرص يَقْذُرك الناس ، فقيرًا فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثتُ هذا المال كابرًا عن كابر ، فقال : إن كنتَ كاذبًا

فصيَّرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأقرع فى صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، فرد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال : إن كنت كاذبًا، فصيّرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين ، وابن سبيل ، انقطعتْ بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغَ لى اليوم إلا بالله ، ثم بك ، أسألك بالذى ردَّ عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى ، فقال : قد كنتُ أعمى ، فردَّ الله إلىَّ بصرى ، فخذْ ما شئت ، ودعْ ما شئت ، فوالله ! لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله ، فقال : «أمْسِكْ مالكَ ، فإنما ابتُليتُم ، فقد رُضِى عنك ، وسُخِط على صاحبيك» [1] .

٤ ـ قصة المقترض ألف دينار :

روى البخارى عن أبى هريرة ﷺ : أن رسول الله ﷺ ذَكَر رجلاً من بنى إسرائيل ، سأل بعض بنى إسرائيل أن يُسلِفَه ألف دينار ، فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم، فقال : كفى بالله شهيدًا ، قال: فائتنى بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلاً ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مُسَمّى ، فخرج فى البحر ، فقضى حاجته ، ثم التمس مركباً يركبه يقدمُ عليه للأجل الذى أجَّله ، فلم يجد مركباً فاتَّخذ خَشَبةً ، فنقرَها ، فأدخل فيها ألف دينار ، وصحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زَجج [2] موضعها ، ثم أتى بها البحر ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى تَسَلَّفْتُ فلاناً ألف دينار ، فسألنى كفيلاً ، فقلت : كفى بالله كفيلا،فرضى بك وسألنى شهيدًا، فقلت كفى بالله شهيدًا، فرضى بك، وإنى جهدتُ أن أجد مركبًا، أبعث إليه الذى له، فلم أقدر، وإنى استودعتكها، فرمى بها فى البحر حتى وَلَجَت فيه ، ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركبًا يخرجُ إلى بلده فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعلَّ مركبًا قد جاء بماله ، فإذا بالخشبة التى فيها المال ، فأخذها لأهله حطبًا ، فلما نشرها وجد المال

(١) انظر : جامع الأصول (١٠/ ٣٢١) تحقيق : الأرناؤوط .
(٢) أى : سوّى موضع النقر ، وأصلحه .

والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه ، وأتى بألف دينار ، فقال : والله ، ما زلتُ جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدتُ مركباً قبل الذى جئت به ، قال : فإن الله قد أدَّى عنك الذى بعثته فى الخشبة ، فانصرف بالألف دينار راشداً»[1].

وهكذا يعيشُ الطفل مع القصص النبوى ، ومع قصص السيرة النبوية ، ومع القصص القرآنى ، فيعيش فى أجواء الإيمان ، وحرارته ، فيزيده ثباتاً ، ورسوخًا .

الأساس الفكرى الثانى : الخطاب المباشر للطفل :

إن الخطاب المباشر فى مخاطبةعقل الطفل ، وتبيين الحائق له ، وترتيب المعلومات الفكرية ليحفظها مع فهمها ، يجعل من الطفل أشدّ قبولاً ، وأكثر استعداداً للتلقى ، وأما اللف والدوران ، فليس له فى التعامل مع الطفل نصيب ، وهكذا علَّمنا رسول الله ﷺ أن نتوجّه إلى الطفل فى كثيرٍ من المناسبات بالخطاب المباشر بصراحة ، ووضوح .

وما حديث ابن عباس رضى الله عنهما الذى أخرجه الترمذى - قال : كنتُ خلف النبى ﷺ يومًا ، فقال : «يا غلام ، إنى أعلمك كلمات» إلا دليل ذلك .

فالرسول ﷺ يباشر إلى الموضوع الذى يريده ، فيقول للطفل الناشئ : «إنى أعلمك» فالرسول ﷺ يعلم الطفل «كلمات» مختصرة مفيدة ، لا طول فيها ، ولا ملل، وذلك انسجامٌ مع طبيعة الطفل الفكرية ؛ التى تتطلب الكلمات القصيرة ، الموجزة ، الجامعة ، الغنية بالمعانى والأفكار .

وإذا تأملنا فى طبيعة الكلمات التى وجهها الرسول ﷺ وجدناها تشكّل للطفل قواعد فكرية ، عَقدية ، أساسية فى حياته الحاضرة الطفلية ، وفى شبابه المرتقب بعد حين ، فلنقرأ هذه الكلمات ، ونشاهد :

«احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تُجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا

---

(١)انظر: جامع الأصول (١/ ٣٢٣).

استعنت فاستعنْ بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعت الأقلام ، وجَفَّت الصُّحُف» .

أرأيتَ إلى جمال هذا الخطاب المباشر الذى ابتدأ فى شد انتباه الطفل بكلمة : «يا غلام» التى تثير انتباه الطفل ، وتشعره بنشوة اهتمام الآخرين به مثلما يشعر الشباب عندما يسمعون النداء : «يا شباب» .

ثم هل رأيت بيانًا جامعًا شاملًا، يخاطب عقل الطفل مثل هذا الخطاب ؟ ! وهل قرأت ، أو سمعت مثل هذه القواعد الكلية التى تؤسس فكرة وعقل الطفل ؛ لتكون مرتكزًا له فى مواجهة الحياة ؟ كذلك فإن الرسول ﷺ ليرشد الطفل بخطابه المباشر إلى طريقة عملية ؛ ليتخلص من أدران أمراض القلب كالحسد ، والبغضاء ، والحقد ، والكيد، وذلك بتسلسل فكرى عجيب .

أخرج الترمذى عن أنس ﷺ قال : قال لى النبى ﷺ : «يا بنى ، إذا قَدَرْتَ أن تصبح وتمسى ، وليس فى قلبك غشٌّ لأحد ، فافعل يا بنى ، وذلك من سنتى ، ومن أحيا سنتى فقد أحيانى ، ومن أحيانى كان معى فى الجنة» .

وهنا استخدم النبى ﷺ عبارة : «يا بنى» وذلك لإثارة مشاعر الطفل ، وشدّ انتباهه له ، واستيقاظه إلى سماع الحديث .

وفى استعراض بيان الرسول ﷺ هذا نجد طريقة الإقناع التى استخدمها مع الطفل ، وكيف رتب له المعلومات ليحفظها ، وتسلسل معه فى الحديث ليفهمه ، ويستفيد منه فى خطاب مباشر له ، وفى جو هادئ مريح ، وفى إثارة عجيبة بكلمة : «يا بنى» .

الأساس الفكرى الثالث : خطاب الطفل على قدر عقله :

الطفل كأى كائن حى ، له حدود لا يستطيع تجاوزها ، وعقله وفكره ما زال فى

ريعان النمو والتوسُّع ، وإدراك الوالدين والمربين إلى درجة نمو عقل الطفل التى وصل إليها ، يُسَهِّل عليهم حل كثير من المشاكل ، إذ عندها يعرفون متى يخاطبونه ، والكلمات التى يستعملونها ، والأفكار التى يقدمونها .

ودليل هذا أنه قبل معركة بدر ، حينما قبض الصحابة على غلام راع لقريش ، سألوه عن عدد الجيش ، فإذا به لا يحسن الإجابة فضربوه ، حتى أقبل النبى ﷺ وهو عالمُ النفس الحقيقى بلا منازع - فإذا به يسأل الغلام : «كم ينحر القوم من الإبل ؟» قال الغلام : بين التسعة والعشرة . فقال ﷺ : «القوم بين التسعمائة والألف» فعرف ﷺ أن هذا الغلام لا يعرف عدد الألوف ، ولكن طاقته العقلية تدرك عدد العشرات... وعشرات أى شىء ؟؟ عشرات الإبل التى يسهل عدّها على كل طفل؛ لما لها من الحجم الكبير .

وهذا دليلٌ آخر : ينادى الرسول ﷺ بنتًا صغيرة باللغة الحبشية التى تفهمها ، ولو كلّمها بغير ذلك لما فهمت قصده ، فقد أورد ابن تيمية فى كتابه : «اقتضاء الصراط المستقيم» أن النبى ﷺ قال لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص - وكانت صغيرة قد وُلدت بأرض الحبشة لما هاجر أبوها - فكساها ﷺ قميصًا، وقال: «يا أم خالد ، هذا سناه» والسناه بلغة الحبشة : الحسن [1] .

وروى الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يسترنى بردائه ، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد ، حتى أكون أنا التى أسأم، فاقدروا قَدْر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو .

وللنسائى فى أخرى عنها : قالت : «وجاءت السودان يلعبون بين يدى رسول الله ﷺ فى يوم عيد ، فدعانى رسول الله ﷺ فكنت أطلع عليهم من فوق عاتقه ، حتى كنت أنا التى انصرفت» .

(١) قال ابن حجر فى الفتح معلقاً (١٣/ ٣١) : «وأن المازحة بالقول والفعل إنما يقصد به التأنيس» .

ومن الأمثلة الحياتية : أنه حينما كان يقصِّر أنس ﷺ فى خدمة النبى ﷺ ، أو ينسى أمرًا، فيعاقبه أهلُ النبى ﷺ ، فإذا برسول الله ﷺ المدرك لحدود طاقة الطفل ، يقول : «دعوه ، فلو قدر لكان» فهذا يعنى : أن الطفل ذو طاقة فكرية وجسمية محدودة ، فمطالبته بأعمال تفوق قدرته يعنى : استنبات البذور فى الهواء . وحتى فى الممازحة كان ﷺ يمازح الأطفال على قدر طاقتهم العقلية والفكرية ، فيمازحهم بأشياء يحسونها ، ويدركونها ، ويعرفونها ... وهل ممازحته ﷺ للطفل «أبى عمير» ... «يا أبا عمير ، ما فعل النغير» إلا دليل ذلك ، حيث كان هذا النغير طائراً صغيرًا يلعب به الطفل الصغير .

وإذا أردنا أن نشاهد الصورة العكسية ، أى مخاطبة الطفل فوق طاقته الفكرية ، سنجد عندها التمرد ، والمشاكسة ، والعناد ، والبلادة أحياناً ، أرأيت رجلاً يأمرك بأمر بغير لغة تعرفها ، فلا تستجيب له ، فينهال عليك ضرباً ولكماً ، هل هذا من العدل بمكان ؟ وهكذا الطفل .

الأساس الفكرى الرابع : الحوار الهادئ مع الطفل :

إن الحوار الهادئ ينمى عقل الطفل ، ويوسع مداركه ، و يزيد من نشاطه فى الكشف عن حقائق الأمور ، ومجريات الحوادث والأيام ، وإن تدريب الطفل على المناقشة والحوار يقفز بالوالدين إلى قمة التربية والبناء ؛ إذ عندهم يستطيع الطفل أن يعبر عن حقوقه ، وبإمكانه أن يسأل عن مجاهيل لم يدركها ، وبالتالى تحدث الانطلاقة الفكرية له ، فيغدو فى مجالس الكبار ، فإذا لوجوده أثر ، وإذا لآرائه الفكرية صدىً فى نفوس الكبار ؛ لأنه تدرب فى بيته مع والديه على الحوار ، وأدبه ، وطرقه ، وأساليبه ... واكتسب خبرة الحوار من والديه .

أما ما يفعله بعضُهم بإلزام الطفل السكوت الدائم ، ليدل على التهذيب الأخلاقى ، والصمت التام ، والأدب الرفيع ، فإن هذا طيب وجيد بشرط أن تكون

للطفل القدرة على التعبير عن أفكاره ، واستطاعته الحوار بأدب ، وخُلُق جمّ .

وإنَّ رسول الله ﷺ حاور الطفل بهدوء ، وروية عندما سأله عن عدد الجيش كما تقدم- أما الصحابة فكانوا يضربونه ، فلا يجيبهم .

وإن رسول الله ﷺ حاور الفتى المقبل على طلب الزنا بشكل هادئ ، فقام الفتى وقد أبغض الزنا بغضاً شديداً .

وقد تقدم فى قيام الأطفال للّيل حديث ابن عباس - رضى الله عنهما - الذى رواه البخارى ، وحرصه على القيام ، وفى رواية ثانية زيادة : نتعلم منها محاورة الرسول ﷺ مع الطفل الناشئ ابن عباس ، وإليك الحوار الهادئ اللطيف :

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : بِتُّ عند خالتى ميمونة لأراقب صلاة رسول الله ﷺ ، فانتبه رسول الله ﷺ وقال : «نامت العيون ، وغارت النجوم ، وبقى الحى القيوم» ثم قرأ آخر آل عمران : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران : ١٩٠] الآيات . ثم قام إلى شَنّ معلق فى الهواء ، فتوضأ ، وافتتح الصلاة ، فتوضأت ، ووقفت عن يساره ، فأخذ بأذنى ، وفى رواية : بذؤابتى ، وأدارنى خلفه، حتى أقامنى عن يمينه ، فعدتُ إلى مكانى ، فأعادنى ثانياً وثالثاً ، فلما فرغ قال : «ما منعك يا غلام ! أن تثبت فى الموضع الذى أوقفتك فيه ؟» فقلت : أنت رسول الله ، ولا ينبغى لأحد أن يساويك ، فقال ﷺ : «اللهم فقّهه فى الدين ، وعلّمه التأويل»[1].

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلى من آخر الليل ، فقمت وراءه ، فأخذنى ، فأقامنى حذاءه ، فلما انصرف قال : «ما لك ؟! أجعلك حذائى فتخنس» قلت : ما ينبغى لأحد أن يصلى حذاءك ، وأنت رسولُ الله، فأعجبه ، فدعا الله أن يزيدنى فهمًا وعلمًا. رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٥٣٤)

(١) بدائع الصنائع (١/ ٢٥٨) .

وقال : صحيح على شرط الشيخين .

ويحاور ﷺ طفلاً يريد الدخول فى المعركة بكل هدوء وروية ، ويسمع رأيه ، وينصفه .

عن سمرة بن جندب ﷺ قال : أَيَّمَتْ أمى ، وقدمت المدينة ، فخطبها الناس ، فقالت : لا أتزوج إلا برجل يكفلُ لى هذا اليتيم ، فتزوجها رجلٌ من الأنصار ، قال: فكان رسول الله ﷺ يعرضُ غلمان الأنصار فى كل عام ، فيلحق من أدرك منهم ، قال: فعرضت عامًا، فألحق غلامًا ، وردّنى ، فقلت : يا رسول الله، لقد ألحقته ، ورددتنى، ولو صارعتُه لصرعتُه ، قال : «فصارعْهُ» فصارعتُه فصرعته، فألحقنى . رواه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٦٠) وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه، وأقره الذهبى .

كما يدرب الطفل أثناء الحوار ، على احترام رأى الطرف الآخر ، وخاصة أن كان له دليل شرعى ، إن كان الحوار فى الأدلة الشرعية ، وأن كان الحوار فى الأمور الظنية، والاحتمالات العقلية ، فيعلم أن يوسع صدره لذلك ؛ إذ كلما زادت الآراء الظنية والاحتمالات الفكرية العقلية ، فإن العقل يزداد نضوجًا، وتتوسع دائرة الخيال الفكرى ، ويبدأ الترجيح بين تلك الاحتمالات من مؤيدات أخرى .

فعن محمد بن أبى بكر الثقفى قال : «سألت أنسًا ﷺ ونحن غاديان من مِنًى إلى عرفات - عن التلبية ؟ كيف كنتم تصنعون مع النبى ﷺ ؟ قال : كان يُلبى المُلبّى، لا يُنكر عليه ، ويُكبِّر المكبِّرُ ، فلا ينكر عليه» متفق عليه .

إن الإنكار لا يكون إلا فى حالة واحدة ، ألا وهى حالة إجماع الأمة ، فمن خالف الإجماع فإنه يُنكر عليه ؛ لأن رأيه أصبح شاذاً ، خرج عن الأمة وفقهائها ، فهذا الرأى هو الذى يشق المسلمين : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

[النساء] .

وأما عدا الإجماع ، فإن الحوار الفكرى قائم ومستمر إلى يوم القيامة؛ لـذا نـرى فى المذاهب الفقهية الأربعة المعتبرة قولهم : وعليه الفتـوى ، وهـذا الأصـح ، وهـذا صحيح ، فينزلون الآراء منازلهم . وما ذلك إلا دليل النضج العقلى الفقهى لأولئك الأئمة ، رحمهم الله تعالى .

وسار الصحابة بعد ذلك على منهج النبوة، فهذا عمر بن الخطاب أمير المـؤمنين يـشكو إليـه أب عقـوق ولـده، فـما كـان مـن عمـر إلا أن اسـتدعى الابـن لـيفهم الحقيقة،فقال عمر للابن: ما حملك على عقوق أبيك؟ فقال:يا أمير المؤمنين، ما حـقُ الولد على أبيه؟قال:أن يحسن اسمه،وأن يحسن اختيار أمه،وأن يُعلمه الكتاب.فقال: يا أمير المؤمنين،إن أبى لم يفعل شيئًا من ذلك.فالتفـت عمـر لـلأب وقـال لـه:لقـد عققت ولدك قبل أن يعقك.

وكان عمر يحاور الصبيان،حتى إنه يستشيرهم فى الأمور المهمة[1].

أرأيت يا أخى، حتى خليفة المسلمين، ورئيس أكبر دولة في العـالم.وعمـر ومـا أدراك ما عمر بقوته في الحق؟! يستشير فى الأمور المهمـة،هؤلاء الـذين لا تأبـه لهـم بالًا،وتنظر إليهم من عل،هؤلاء الأطفال،الذين يحاورهم رسـول اللهﷺ،ويناقـشهم أمير المؤمنين،فهلم إلى الحوار الهادئ مع طفلك، تناقشه فى ودّ،وتسمع إلى رأيه بأنـاة وحلم، كما سمع وحاور خامس الخلفاء الراشدين.

«حينما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيزﷺ وفـدت الوفـود مـن كـل بلـد لبيـان حاجتها، وللتهنئة،فوفد عليه الحجازيون،فتقدم غلام هاشمى للكلام،وكان حـدث السن،فقال عمر:لينطق من هو أسن منك، فقال الغلام:أصـلح الله أمـير المـؤمنين، إنما المرء بأصغريه قلبه ولـسانه،فإذا مـنح الله عبـدًا لـسانًا لافظًا،وقلبًـا حافظًا،فقـد استحق الكلام، وعرف فضله من سـمع خطابـه، ولـو أن الأمـر يـا أمـير المـؤمنين بالسن،لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك. فقال عمر:صـدقت،قل مـا

(١) حياة عمر بن الخطاب للطنطاوين .

بدا لك. فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين،نحن وفد تهنئة، لا وفد مرزئة، وقد أتيناك لمن الله الذى من علينا بك،ولم يقدمنا إليك رغبة ورهبة،أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا، وأما الرهبة فقد أمِنّا جَوْرَك بعدلك. فقال عمر: عظنى يا غلام، فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين، إن نامًا من النامس غمرهم حلم الله عنهم، وطول أملهم،وكثرة ثناء الناس عليهم،فزلت بهم الأقدام، فهووا فى النار، فلا يغرنَّكَ حِلْمُ الله عنك،وطول أملك، وكثرة ثناء الناس عليك، فتزل قدمك، فتلحق بالقوم، فلا جعلك الله منهم،وألحقك بصالحى هذه الأمة. ثم سكت.

فقال عمر:كم عمر الغلام؟ فقيل:هو ابن إحدى عشرة سنة، ثم سأل عنه، فإذا هو من ولد سيدنا الحسين بن علي ﷺ فأثنى عليه،ودعا له».

وعن مصعب بن سعد قال:«كان أبى إذا صلّى في المسجد تجوز،وأتم الركوع والسجود،وإذا صلى فى البيت أطال الركوع والسجود والصلاة، قلت: يا أبتاه،إذا صليت فى المسجد جوزت، وإذا صليت فى البيت أطلت،قال: يا بنى،إنا أئمة يُقتدى بنا».رواه الطبراني في الكبير،ورجاله رجال الصحيح،كذا قاله الهيثمى فى المجمع (١/ ١٨٢).

وعن أبى بردة بن أبى موسى ﷺ قال:شهدت أبا موسى، وهو فى بيت أم الفضل،فعطَسَت، فشمّتها،وعطستُ فلم يشمِّتنى، فلما جئت إلى أمى أخبرتها، فلما جاءها أبو موسى،قالت له:عطس عندك ابنى فلم تشمته، وعطست امرأة فشمتها؟فقال:إن ابنك عطس فلم يحمد الله، فلم أشمته،وإنها عطست،فحمدت الله فشمتها،سمعت رسول الله ﷺ يقول:«إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه،وإذا لم يحمد الله فلا تشمتوه». قالت: أحسنت .رواه الحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٦٥٦) وقال :صحيح الإسناد، ولم يخرجاه،وأقره الذهبى.

ونورد فيما يلى نموذجًا حيًا فى الحوار الهادئ،كان سببًا فى تصحيح مسار إمام

كبير،فقد رأى الإمام أبو حنيفة غلامًا يلعب بالطين، فقال له: يا غلام! إياك والسقوط فى الطين، فقال الغلام للإمام:إياك أنت من السقوط؛لأن سقوط العالِم سقوط العالَم. فكان أبو حنيفة لايفتى بعد سماع هذه الكلمة إلا بعد مدارسة المسألة شهرًا كاملًا مع تلامذته[1].

وروى الخطيب بسنده إلى مجاشع بن يوسف أنه قال: كنت بالمدينة عند مالك (ابن أنس) وهو يفتى الناس، فدخل عليه محمد بن الحسن، صاحب أبى حنيفة ـ وهو حَدَثَ ـ وذلك قبل أن يرحل إليه لسماع الموطأ منه، فقال(محمد):ما تقول فى جُنُب لا يجد الماء إلا فى المسجد؟فقال مالك:لا يدخل الجنب المسجد. قال (محمد):فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة وهو يرى الماء؟قال:فجعل مالك يكرر: لا يدخل الجنب المسجد. فلما أكثر عليه قال له مالك: فما تقول أنت فى هذا؟ قال:يتيمم ويدخل، فيأخذ الماء من المسجد، ويخرج،فيغتسل، قال:من أين أنت؟قال:من أهل هذه، وأشار إلى الأرض، ثم نهض،قالوا: هذا محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة، فقال مالك:محمد بن الحسن كيف يكذب؟وقد ذكر أنه من أهل المدينة. قالوا : إنما قال من أهل هذه، وأشار إلى الأرض، قال: هذا أشد على من ذاك[2].

ودخل إياس بن معاوية الشام،وهو غلام، فتقدم خصم له ـ وكان الخصم شيخًا كبيرًا ـ إلى بعض قضاة عبد الملك بن مروان، فقال له القاضى:أتتقدم شيخًا كبيرًا؟قال: الحق أكبر منه،قال:اسكت،قال:فمن ينطق بحجتى؟قال:لا أظنك تقول حقًا حتى تقوم؟ قال:لا إله إلا الله،أحقًا هذا أم باطلًا؟! فقام القاضى؛فدخل على عبد الملك من ساعته،فخبره بالخبر،فقال عبد الملك:اقض حاجته الساعة، وأخرجه

(١) الإسلام بين العلماء والحكام لعبد العزيز البدرى (ص:١١٢).و(ص:٦٤) من كتاب (تذكرة الآباء وتسلية الأبناء لابن العديم).

(٢) بلوغ الأمانى فى سيرة الإمام محمد بن حسن الشيبانى للشيخ محمد زاهد الكوثرى ـ رحمه الله (ص:١٢).

من الشام؛ لا يفسد على الناس[1].

«ويقول الجنيد: كنت بين يدى السرى ألعب، وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر، فقال لى: يا غلام ما الشكر؟ فقلت: لا تعصى الله بنعمه، فقال: يوشك أن يكون حظك من الله تعالى لسانك، قال الجنيد: فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرى»[2].

وسيأتى معنا فى البناء العلمى روايات كثيرة من الأسئلة والأجوبة المفحمة، وأن ذلك مما يفتح عقل الطفل، ويزيده نضوجًا. فلينظر هناك.

الأساس الفكرى الخامس: تدريب حواس الطفل بالتجارب العملية:

إن تدريب حواس الطفل يكسبه معرفة، وعلمًا يبدأ بالنمو، ويبتدئ بتشغيل يديه فى عمل من الأعمال، فإن ذلك يثير فى عقله اليقظة فيشاهد أمامه كيف يدرب حواسه، ويعيد هو نفسه ذلك العمل، وهكذا يتقن العمل، ويتطلع إلى إجادة العمل خطوة خطوة.

ورسول الله ﷺ رأى طفلًا يسلخ شاة، وما يُحسنُ، فما كان منه ﷺ إلا أن شمر عن ساعديه، وبدأ بسلخ الشاة أمام الطفل، وراح الطفل يتأمل الكيفية، ويعمل عقله فى ذلك، ويركز ذهنه فى التعليم من رسول الله ﷺ.

فقد أخرج أبو داود عن أبى سعيد الخدرى ﷺ: أن رسول الله ﷺ مَر بغلام يسلخ شاة، وما يحسن، فقال له رسول الله ﷺ: «تنحّ حتى أريك»، فأدخل يده بين الجلد واللحم، فَدَخَس[3] بها، حتى دخلت إلى الإبط، ثم مضى، فصلى بالناس، ولم يتوضأ. بمثل هذه التجارب العملية فى تدريب الطفل يمكن أن تتفتح آفاق معرفته، وتتوسع مدارك ذهنه وعقله.

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٦٩.

(٢) الرسالة القشيرية باب: الشكر.

(٣) أى: دَفَعَ.

الأساس الفكرى السادس: شد الطفل إلى شخصية ثابتة قدوة له هو رسول الله ﷺ:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:بتُّ عند خالتى ميمونة، فلما كان بعض الليل قام رسول الله ﷺ يصلى،فأتى شنًا معلقًا، فتوضأ وضوءًا خفيفًا، ثم قام فصلى، فقمت فتوضأت، وصنعت مثل الذى صنع، ثم قمت عن يساره، فحولنى عن يمينه، فصلى ما شاء الله،ثم اضطجع فنام حتى نفخ، ثم أتاه المؤذن يؤذنه بالصلاة، فخرج فصلى.رواه ابن خزيمة فى صحيحه (٣/ ١٧).

وفى رواية أخرى لابن خزيمة:بت عند خالتى ميمونة، فتتبعت كيف يصلى رسول الله ﷺ ، ثم قام يصلى ...

إن ربط **الطفل** بشخص رسول الله ﷺ والاقتداء به، وغرس حبه على نحو سيأتى في البناء العقدى للطفل، والاهتداء بحديث النبى ﷺ الذى أخرجه الطبرانى، وابن النجار عن على كرم الله وجهه:«أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب آل بيته، وتلاوة القرآن».

إن تعلق **الطفل** بالرسول ﷺ يجعل منه إنسانًا سويًا، إذ يفتح ذهنه ومداركه على سيرة إمام الرسل،وقائد البشرية، وحبيب الرحمن، ويتوقد عقله بالنور الإيمانى، ويفهم هذا التاريخ المجيد، فيرفع رأسه بانتمائه إلى رسول الله ﷺ.

وإذا علمنا سخافة الغرب بتنشئة الطفل على التمسك بالأشخاص الخياليين مثل «سوبرمان» وغيره أدركنا عظم أهمية ربط عقل الطفل بشخص رسول الله ﷺ.

ويكفى أن تقدم مسيرته،وسلوكه، وغزواته أمام الأطفال ليسارع الطفل إلى حب نبيه، والاقتداء برسوله، والتمسك بسلوكه ﷺ، والابتعاد عن الشرذمة الفاجرة.